***Dirasat*: Human and Social Sciences, Volume 52, No. 4, 2025, 7202**

Deanship of Scientific Research

The Semiotics of Belonging in the Novel "The Homeless" by Jabbour Al-Duwaihy

Nina Nabil Ayoub*

Department of Arabic Language, Jinan University, Tripoli, Lebanon.

Received: 19/3/2024
Revised: 1/4/2024
Accepted: 5/5/2024
Published online: 10/3/2025

* *Corresponding author:*
nina.ayoub@jinan.edu.lb

Citation: Ayoub, N. N. (2025). The Semiotics of Belonging in the Novel "The Homeless" by Jabbour Al-Duwaihy. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *52*(4), 7202.
https://doi.org/10.35516/hum.v52i4.7202

© 2025 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

Objectives: A narrative semiotic thematic study, which attempts, in a systematic reading based on structural narratives, to identify the issues formed, according to Jabbour Al-Duwaihi, in his novel "The Homeless." by revealing the relationship between the space-time paper character and its affiliations, as part of the world of the novel, , and revealing the geographical spatial dimensions in the novel, and what it added on the pragmatic level, in highlighting the struggles and conflicts of belonging.

Methods: Adopt the methodology of narrative semiotics, which benefited from discursive structuralism and opened up to other human sciences, including sociology, anthropology, and psychology.

Results:. The semiotic approach is a methodological tool in the study of the text, through the tools employed on the narrative discourse, which enables understanding the semantic dimensions, and formulating the research as an integrative unit for the subject of study. It gives the recipient a level of knowledge, to penetrate the depth of the narrative experience

Conclusions: The place is a tool of personal being and a means of recognizing its formative dimensions, and giving it a significance where the data of the outside world are transformed into internal human data. It reflects how cultures deal with it as part of their diversity, translating human, political, sectarian, existential and civilizational conflicts.

Keywords: Semiotics, belonging, spatial space, space, personality, anthropology

سيميائيّة الانتماء في رواية "شريد المنازل" لجبور الدويهي

نينا نبيل أيّوب*

قسم اللغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الجنان، طرابلس، لبنان

ملخّص

الأهداف: دراسة موضوعاتيّة سيميائيّة سرديّة، تحاول في قراءة منهجيّة مرتكزة على السّرديّات البنيويّة، معرفة القضايا المتشكّلة، عند جبّور الدويهي، في روايته "شريد المنازل"، وذلك بالكشف عن العلاقة، بين الشّخصيّة الورقيّة الزمكانيّة وانتماءاتها، باعتبارها جزءًا من عالم الرّواية، ومن دراسة الأبعاد المكانيّة الجغرافيّة في الرواية، وما أضافته على المستوى البراغماتيّ، في إبراز الصراعات والنزاعات الانتمائيّة.

/المنهجيّة: اعتماد منهجيّة السيميائيّة السرديّة الّتي استفادت من البنيويّة الخطابيّة، وانفتحت على سائر العلوم الإنسانيّة، -ضمنًا- علم الاجتماع، والانتروبولوجيا، والنّفس.

النتائج: إنّ المقاربة السّيميائيّة أداة منهجيّة في دراسة النّصّ، من خلال الأدوات الموظّفه على الخطاب الرّوائيّ، ما يمكّن من فهم الأبعاد الدّلاليّة، وصياغة البحث كوحدة تكامليّة لموضوع الدراسة، ويمنح قدرًا معرفيًّا للمتلقّي، للنّفاذ إلى عمق التّجربة الرّوائيّة.

الخلاصة: إنّ المكان هو أداة كينونة الشخصيّة، وواسطة لإدراك أبعادها التكوينيّة، ومنح المكان دلالة، حيث تتحوّل معطيات العالم الخارجيّ إلى معطيات إنسانيّة داخليّة، يعكس كيفيّة تعامل الثّقافات معه كجزء من تنوّعها، تترجم فيه الصّراعات الإنسانيّة، والسّياسيّة، والطّائفيّة، والوجوديّة والحضاريّة.

الكلمات الدّالة: السيميائيّة، الانتماء، الفضاء المكانيّ، الحيّز، الشخصيّة، الأنتروبولوجيا..

مقدمة

إنّ الفنّ الروائيّ هو أحد الفنون الأدبيّة النثريّة الحديثة الذي استقطبت العديد من المقاربات الدراسيّة، لملامسة أبعاده الدلاليّة. وبدأت الدّراسات السّيميائيّة أو الشّعريّة، في منتصف القرن العشرين، تولي الاهتمام بالمنهج السياقيّ عبر البحث عن تأثير البيئة والثقافة، وغيرها من المؤثّرات الخارجيّة، إلى البحث عن بدائل منهجيّة على مستوى الرؤية والمنهج، من أجل الكشف عن تمظهرات صيغ الخطاب، وتجليّات العمل السّرديّ. وقد أولى الباحثون اهتمامهم بدراسة المكان، متعالقًا مع المكوّنات الحكائيّة الأخرى للخطاب السّرديّ، بتتبّع تنقلاّت الشّخصيّات، انتماءاتها، والأحداث، والرّؤيات السّرديّة. وبذلك يسهل، من خلاله، الدّخول إلى عالم الرّواية، دلالاته الواقعيّة والرّمزيّة، فهم أحداث الرّواية ووقائعها. بمعنى آخر، إنّ المكان يشكّل إلى ما هو أبعد من الإطار الهندسيّ، أو ممّا هو ديكور لتزيين المشهد، إلى محاولة لكشف عن العلاقات البنيويّة العمقيّة الّتي توجّه النّصّ، وترسم مساره، متعالقًا مع انتماءات الشخصيّة القائمة في العلاقات المحفّزة مع الذات، ومع الآخرين.

وعليه تطرح **الإشكاليّة** الآتية: نقل الرّوائيّ أحداثاً متنوّعةً في أمكنةٍ متعدّدةٍ. إلى أيّ مدى تتّسم الدّلالات المكانيّة المخصّصة لمفهوم المكان الرّوائيّ، وعلاقته بانتماءات الشّخصيّات الرّوائيّة في ظلّ معالم السّيميائيّة؟

ومن هذا المنطلق يُطرح **السؤال** الآتي:

هل باتت الأمكنة في الرّواية مجرّد تزيين وتنسيق تجميليّ، أو شاهدًا على أحداث جرت روائيًّا في الزّمكانيّ الرّوائيّ؟ وهل هناك مقاصد دلاليّة محجوبة وراء ظاهر القول؟

ومنها تتشكل **الفرضيّتان** الآتيتان:

إنّ للأمكنة وظيفة معيّنة تساعد المتلقّيّ على فهم الأبعاد الدلاليّة للشخصيّة وانتماءاتها النفسيّة والاجتماعيّة المتعالقة مع الخطاب السّرديّ.

يساعد المنهج السيميائيّ النقديّ في الكشف عن المكامن الدلاليّة التي يسعى إليها الروائيّ.

كان لا بدّ لي من اعتماد **منهج** في هذه الدّراسة، لإبراز مجموع القيم الّتي يزخر بها النّصّ الأدبيّ، بعيدًا عن الانطباعيّة، والاستفادة من تطوّر علم الدّلالات أو بما يعرف بالسّيميائيّة.

إنّ السّيميائيّة، منهج داخليّ، من أهميّته أنّه يدرس أيّ نموذج دراسة جديدة من خلال استقراء يستمدّ أصوله من الألسنيّة السّوسوريّة الاجتماعيّة مرورًا بالبنيويّة، وصولاً إلى التّأويل الدّينامّي المفتوح كما عند ساندرز بيرس (Peirce) وأمبيرتو إيكو (Eco)، ما يجعل النّصّ مغلقًا في قراءته بفعل عدم تأثّره ببيئة المؤلّف الخارجيّة، ومفتوحًا في آن بخاصّة في منظومة التّأويل.

تطوّرت السّيميائيّة باستثمار العديد من العلوم... لتوليد دلالة إضافيّة براغماتيّة كالمكبوت والإيديولوجيّ... وفي هذا النّطاق، عوّلنا على بعض علماء الأنثروبولوجيّين (ابن شعيب، **2018**)، أمثال: يوري لوتمان (Youri Lotman)، غاستون باشلار (Gaston Bachelard)، بيار بورديو (Bourdieu Pierre)، بحيث يتمكّن كلّ قارئ أن يصبح كاتبًا آخر ومنتجًا ثانيًا للنّصّ، لأنّ المتلقّي ينشط على مستوى استنطاق الدّالّ، فالنّصّ بحسب اللسانيّة بنية مستقلّة طوّرته السّيميائيّة إلى بنية تواصليّة براغماتيّة.

واقتصر البحث على دراسة الفضاء المكانيّ أو الفضاء الرّوائيّ، وعلاقته بانتماء الشخصيّات إليه، بهدف الكشف عن أبعاده الدلاليّة العمقيّة على المستويات التّعبيريّة، والنّفسيّة، والاجتماعيّة، وذلك بالتعويل على عدد من الدراسات الموازية، نذكر منها:

- أيّوب (نبيل). **نصّ القارئ المختلف وسيميائيّة الخطاب النّقديّ**

قدّم الكاتب أهمّ النّظريّات في القراءات النّصيّة المختلفة الّتي ركّزت على البراغماتيّة وتحليل الخطاب، واستفادت من السّيميائيّة لا سيّما في القراءات: النّفسيّة، والسّوسيولوجيّة، والتّفكيكيّة، والوجوديّة، والموضوعاتيّة، وقد اصطفيت منه بعض المرتكزات المتمحورة حول القراءات النّفسيّة والوجوديّة والموضوعاتيّة.

- باشلار (غاستون). **جماليّات المكان**

يرى غاستون باشلار(Gaston Bachelard) أنّ المكان الرّوائيّ لا يقتصر على أبعاد هندسيّة وحسب، بل يكثّف الوجود المتخيَّل. ولا ينفصل عن دلالته الحضاريّة، ولا عن دور التّصوير الحسّي في تشكيل الفكر البشريّ، وأضفى صفات مكانيّة قائمة على تقاطبات مشفّرة على أفكار مجرّدة، ومقاييس. نحو: الاتّساع والضّيق، الانفتاح والانغلاق.

- Genette (Gérard). *Seuils*

يحدّد **جنيت** العتبات بأنّها كلّ ما يحيط بالكتاب من سياج أوّلي، وعتبات لغويّة وبصريّة. ويميّز النّصّ من الكتاب، والمكتوب من هيئته الماديّة الّتي يظهر بها؛ ذلك أنّ النّصّ لا يمثل أمام القارئ عاريًا، بل محاطًا بجملة من المواد المختلفة، أبرزها محيطاته أو حواشيه الّتي أطلق عليها لاحقًا مصطلح "عتبات"، إشارة إلى بوابة الدّخول إلى النّصّ، والخروج إلى القارئ، ومنها الهيئة الطّباعية، ودار النّشر، وما يرد في صفحتَي الغلاف الخارجيّ... بهدف بلوغ قصديّات معيّنة تأثيريّة، أو ترويجيّة، أو تعريفيّة، أو تعيينيّة.

وهناك دراسات متفرّقة تناولت رواية "شريد المنازل" موسومة بـ"**عتبات الفضاء النّصيّ في رو اية شريد المنازل**"، لأبي الفضل رضائي وزهرا دهّان، نُشِرت في مجلّة اللغة العربيّة وآدابها من السنة 14، العدد 4 شتاء 1440هـ، إلاّ أنّها اقتصرت على دراسة العتبات النصيّة؛ للغلاف والعنوان واستهلال الرواية، وأخطأ الباحثان في مقدّمة الدراسة عندما اكتفيا بقولهما: "إنّ المقصود من الفضاء النّصيّ العتبات"، وأصابا بأنّها "تُعدّ مفاتيح النّصّ التي تحمل علامات دلاليّة، تربط النّص بعضه بعضًا". أمّا الأخرى المعنونة بـ"**صورة الحرب الأهليّة في لبنان رو اية (شريد المنازل) لجبّور الدويهيّ نموذجًا**"، لأحلام مازن بكري فنشرت في المجلّة المذكورة أعلاه في المجلد (1)، العدد (3): 30 يونيو 2022م، وقد درست الباحثة فيها الصُوَر التي تعكسها المجتمعات المختلفة، في حالتَي الحرب والسِلم، بعيدًا عمّا أضافته الأبعاد المكانيّة الجغرافيّة في الرواية، على المستوى البراغماتيّ، في إبراز الصراعات والنزاعات الانتمائيّة.

1- المكان لغة واصطلاحًا

تضاربت الآراء حول مفهوم المكان، فمنهم من جعله متّصلاً بالجانب المادّي الضّيّق، ومنهم من وَجَده مكانًا خياليًّا له أبعاده ومقوّماته، وسيلته اللغة (قاسم، 1984)، يرتبط بوقفات الوصف، وبالخطاب الرّوائيّ وسيرورته (ابن ستيتي، 2013). فما هو مفهوم عنصر المكان لغة واصطلاحًا في الدّراسات النّقديّة الأدبيّة؟

ذكر **ابن منظور** في معجم لسان العرب المكان، في مادّة "**مكن**"، بمعنى الموضع (ابن منظور،1992) واصطلاحًا نتتبّع بعض نقّاد الغرب، ومن تأثّر بهم من العرب.

يربط **جيرار جنيت** (Gérard Genette) المكان، في تعريفه للفضاء الرّوائيّ بالجانب الدّلاليّ، ويعرّفه بأنّه ينشأ من اتّحاد عناصر: اللغة، التّفكير، الفن المعاصر. يشير إلى أنّ معنى الفضاء باختلاف العصر، لأنّه يرتبط بمؤثّرات نفسيّة واجتماعيّة وثقافيّة (Genette,1966).

ومن خلال المكان، يشير **فيليب هامون** (Phillipe Hamon) إلى أن البيئة الموصوفة تؤثّر في الشّخصيّة، لا بل إنّ وصف البيئة هو وصف مستقبل الشّخصيّة (بحراوي،1990). وفي المقابل، يرى **ميتران** (Mitterand) أنّ المكان يقتضي وجود الشّخصيّات والأحداث، ولا قيمة دلاليّة للمكان إلاّ إذا حصل فيه شيء(Mitterand, 1980). فالبناء المكانيّ يتجسّد في الحيّز الّذي تتحرّك فيه الشّخصيّات (عزّام، 2005)، ويمنحها المناخ الّذي تفعل فيه، وتعبّر عن وجهة نظرها. بمعنى آخر، يشكّل المكان البنية التّحتيّة للرّواية، ليتّسع ويشمل العلاقات بين الأمكنة والشّخصيّات والأحداث، وبهذا فالمكان تخطّى مفهوم الدّيكور، وأسّس الحكي (Mitterand,1980). فالحدث بحاجة إلى مكان وشخصيّات تخترق الأمكنة.

تطوّر هذا المفهوم مع **غاستون باشلار** (Gaston Bachelard) من خلال كتابه "شعريّة المكان" (La poétique de l'espace) (باشلار، 1984)، **ومع جيلبير ديوران** (Gilbert Durant) من خلال كتابه "الأنتروبولوجيا" (Les structures anthropologiques de l'imaginaire)، فلم يهدفا إلى دراسة المكان بالجانب الهندسيّ لإبرازه فحسب، وإنّما ما يخلّفه من آثار فكريّة، وما يترتّب عنه من مؤثّرات نفسيّة، وانعكاسات على رؤى الذّات الآهلة له، فيصير المكان جزءًا من كيان، وعنصرًا من قضاياه النّفسيّة والفكريّة، تشعر بذاته وتعبّر عن شعوره هو، في آن.

يقول **باشلار** (Bachelard)في هذا الصّدد: "إنّ المكان الّذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانًا لا مباليًا ذا أبعاد هندسيّة فحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر، ليس بشكل موضوعيّ فقط، بل بكلّ ما في الخيال من تحيّز، إنّنا ننجذب نحوه، لأنّه يكثّف الوجود في حدود تتّسم بالحماية" (باشلار، 1984)، بمعنى آخر يدرس "ما بعد المكان وما يخلّفه من آثار فكريّة ونفسيّة على رؤى الذّات الآهلة له" (ابن ستيتي، 2013).

هذا وقد نقل **يوري لوتمان** (Youri Lotman) المكان من المستوى الفلسفيّ إلى المستوى الاجتماعيّ، وأكّد أهمّيته تحت نظام العلاقات القائمة بين الأشياء الّتي تخضع بتغييرات مختلفة في الأشكال، و"إنّ نماذج العالم الاجتماعيّة والدّينيّة والسّياسيّة والأخلاقيّة العامّة الّتي ساعدت الإنسان على مراحل تاريخه الرّوحيّ، على إضفاء معنى الحياة الّتي تحيط به، نقول إنّ هذه النّماذج تنطوي دومًا تحت سمات مكانيّة" (لوتمان، وآخرون، 1988).

وعليه، فإنّ المكان امتداد للجسد يعبّر عن قاطنيه، فوصف المرء للأماكن وانتقاله عبرها، يسمح له بالتّعبير عن القيم الفرديّة والجماعيّة لقاطني هذه الأماكن، ووصف حالتهم الاجتماعيّة، والنّفسيّة، بذلك يكون المكان هو "دراسة القيم الرّمزيّة المقترنة بالمجالات الّتي تتاح لنظر السّارد، أو لنظر شخوصه، أو القيم المقترنة بأمكنة استقبالها كالمنزل والغرفة المغلقة والقبو..." (**Mitterrand, 1980**).

نشير إلى أنّه قد شاع في العصر الحديث استخدام **مصطلحات أخرى لمصطلح المكان**؛ الفضاء مع **حميد لحمداني** (لحمداني،1990)، و**إبراهيم جنداري** (جنداري،2001)، الحيّز مع **عبد الله مرتاض** (مرتاض،2003، و**1998**)، ومع **بيار بورديو** (Pierre Bourdieu) توسّع المجال في دراسات الأنتروبولوجيا وغيره.

فمرجعيّة المكان هو الرّكيزة الأساسيّة الّتي يتعامل بها الإنسان مع الوسط الّذي يعايشه، وينتمي إليه، ويشكّل المكان الخلفيّة الارتكازيّة الانتمائيّة لكلّ تصوّر نفسيّ أو اجتماعيّ في متناول الرّوائيّ. لذلك مهما تعدّدت المصطلحات (شلاش،2011)، يبقى أنّ المكان هو نقطة انطلاق الرّوائيّ لبنية النّص وتطوّره، ولا بدّ من عتبة دخول إلى هذا العالم. ذلك الشّيء ينتظم في وجوده الخارجيّ، منذ تشكّل عنوان الرّواية، وقد يكون له وظيفة تؤشّر إلى حقيقة واقعة داخل النّصّ. فلندخل في هذا العالم، ونكتشف ما إذا كان المحيط الخارجيّ لا يعدو كونه مجرّد إشارات العالم الرّوائيّ، أو أنّه "يوجّه القارئ إلى فهم خاص للعمل" (لحمداني،1990).

2- العتبات النّصيّة

تتألّف الرّواية منذ مظهرها الخارجيّ، ويتشكّل النّصّ الرّوائي المكانيّ بعضه ببعض مع العتبات النّصّية. تتكرّر لفظة العتبات في الدّراسات الأدبيّة النقديّة المعاصرة. فما هي هذه العتبات؟ وما دورها في فهم النّصّ الرّوائيّ؟

جاء في لسان العرب "العَتَبَة: أسْكُفَّة الباب الّتي تُوطأ، وقيل: العَتَبَة العُليا. والخشَبة الّتي فوق الأعلى: الحاجب؛ والأُسْكُفَّة: السُّفلى، والعارضتان: العُضادتان، والجمع: عَتَب وعَتَبَات. والعَتَب: الدّرج. وعتب الدّرج. وعتب عَتَبة: اتّخذها. وعتَبُ الدّرج: مراقيها إذا كانت من خشب؛ وكلّ مِرقاة منها عَتَبة"(ابن منظور، 1992).

نستنتج أنّ العتبة تحمل معنى الخشبة الّتي فوق الباب، العارضتان، الدّرج والمراقي، ما اجتاز وانتقل من قول إلى قول. لكن ما الإحلال بينها وبين المتن الرّوائيّ ؟

اهتمّ العديد من النّقاد الغربيّين بهذا الجانب، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر **جيرار جنيت**(Genette)، كما جاء في كتابه "عتبات" Seuils ، **ليو هوك** (Léo Hoek) "سمة العنوان"La marque du titre. ونشطت الدّراسات العربيّة في حقل العتبات أو النّصّ الموازي، منها: "انفتاح النّص الرّوائيّ" **لسعيد يقطين**، "عتبات جيرار جنيات من النّصّ إلى المناص" **لبلعابد عبد الحقّ**، "بنية النّصّ السّرديّ" **لحميد لحمداني**، "سيميوطيقا العنوان" **لجميل حمداوي.**

يحدّد **جنيت** (Genette) العتبات بأنّها كلّ "ما يحيط بالكتاب من سياج أوّلي وعتبات لغويّة وبصريّة" (Genette .Seuils). يميّز النّصّ من الكتاب، والمكتوب من هيئته الماديّة الّتي يظهر بها؛ ذلك أنّ النّصّ لا يمثل أمام القارئ عاريًا، بل محاطًا بجملة من المواد المختلفة، أبرزها محيطاته،... بهدف بلوغ قصديّات معيّنة تأثيريّة أو ترويجيّة أو تعريفيّة أو تعيينيّة.

إذن، تُعدّ العتبات من مفاتيح النّصّ، تحمل في طيّاتها علامات دلاليّة مباشرة وغير مباشرة تختزله بأجمعه، وتربط بعضه ببعضه الآخر. نتوقّف عند دراسة العنوان بوصفه عنصرا جوهريّا نلج من خلاله عالم النّصّ الرّوائيّ.

- **عنوان في "شريد المنازل"**

إنّ العنوان من العناصر الأوّليّة الّتي ينطلق منها المتلقّي إلى النّصّ، ومنه يمكن الاطّلاع على ما يمكن أن يتوالد منه الخطاب. يشير **ميتران** (Mitterrand) إلى أنّ العنوان يتحدّد "مع النّصّ من خلال علاقة عموديّة، يمثّل بموجبها تكثيفًا لدلالة النّصّ"(ابن ستيتي، 2013، ص320) ، أي: إنّه لا ينفصل عن المتن الرّوائيّ، ولا وجود لشيء محايد في الرّواية (Mitterrand,1980). فماذا عن عنوان رواية "شريد المنازل"؟

خُطّ العنوان الخارجي لـ"شريد المنازل" بلون الرمليّ وبالخطّ الثّخين المائل البارز، تصدّره في الأعلى بخطّ أرفع عبارة "على القائمة القصيرة للجائزة العالميّة للرّواية العربيّة 2012"، يحاذيها يسارًا "الطّبعة الثّانية" يقابلها في الأسفل "دار السّاقي"، ثمّ جعل اسم المؤلّف مباشرة أسفل العنوان إلى اليسار بخطّ واضح. وفي أسفل صفحة الغلاف، أدرج العنوان التّعييني/التّجنيسيّ (حمداوي، 2015) "رواية". وقد يكون مردّ ذلك إلى إثارة اهتمام المتلقّي، واستدراجه إلى قراءة الرّواية، ودافعًا قويًّا إلى الإقبال على شراء الرّواية.

كيف نقارب عنوان رواية "شريد المنازل" سيميائيًّا؟

جاء العنوان بصيغة التّركيب "شريد المنازل"، فالشّريد لغة: "إذا كان مشرّدًا فهو شريد طَريد...وقال أبو بكر في قولهم" فلان طريد شريد: أمّا الطّريد فمعناه المطرود، والشّريد فيه قولان أحدهما الهارب...وتشرّد القوم ذهبوا" (ابن منظور،1992)، والمنزل مفرد المنازل "موضع النّزول"(ابن منظور، 1992). تساءلنا: لمَ كلمة شريد؟ وما البنية الدّلاليّة للعنوان؟

عبارة "شريد" صفة مشبّهة على وزن فعيل، تمثّل صيغة وصفيّة أو حدثيّة، مفردة مضافة إلى صيغة الجمع المكانيّة "المنازل". يقف عندها الرّوائيّ ليعبّر عن حالة مضافة إلى لفظة "المنازل" في صيغة الجمع، فالإضافة تطرح أثرًا مكانيًّا. والمعروف أنّ المنزل مكان خاص ومغلق، حميم له خصوصيّاته، ويُعدّ البيت أشدّ أنواع الألفة.

تركّز الرّواية على الحالة الّتي يعيشها البطل، فهو لا يستقرّ في مكان، دائم الحركة والانتقال من منزل إلى آخر: منزل الطّفولة في الميناء، منزل الاصطياف في حَورا، منزل جارهم "توما أبو شاهين" وزوجته "رخيمة"، مواصلة التّنقّل بينهما في مرحلة المراهقة، فالخروج بعدها إلى بيروت، والمكوث في أوتيل زهرة الشّمال، ثمّ الارتحال إلى شقّة سكنيّة في المنارة. يُبعَد عن منزل الأهل في بلدة الميناء، ويرفض أبناء حَورا وجوده في البلدة بعد الحرب الأهليّة. تُدمّر شقّته السّكنيّة في المنارة. يفترش الشّارع. من هنا، فإنّ عنوان الرّواية يوحي بعدم ثبات الشّخصيّة في المكان الواحد.

في هذا الصّدد سألنا الرّوائيّ جبّور الدّويهي، في مقابلة حصريّة أجريناها معه، عن اختيار عنوان الرّواية، فأجاب: "العنوان موجود في الكتاب، وسهل استخراجه. بطل الرواية "نظام" متأرجح بين طائفتَيْن، وبين مدينتَيْن، وخط تماس من جهتَيْن. هو مشرّد في الحرب اللبنانيّة. العنوان مستوحى من رسالة "شمعون رخّو" الموجّهة إلى صديقه "نظام"، يستودعه فيها الرحيل إلى استوكهولم، يختتمها بالقول: "شمعون رخّو شريد الأوطان ويتيم الأصدقاء" (الدويهي، 2012). ومن هذه الجملة، استخرجْتُ العنوان. "فشمعون" العراقيّ الأصل هو مشرّد الأوطان والأمكنة، أقام في حيّ السريان، ثمّ انتقل إلى

المخيّمات الفلسطينيّة، ثمّ إلى السّويد، فلمعت عبارة "شريد الأوطان" عنوانًا ملائمًا، وغيّرتُ لفظة "الأوطان" بـ"المنازل" كوننا داخل الوطن الواحد، وفيها صدى لكتاب كمال الصّليبي "بيت بمنازل كثيرة".

إذًا العنوان هو مفتاح تقنيّ، يربط المتلقّي بالنّصّ. في هذه الرّواية، يؤشّر العنوان إلى حالة من القلق، إلى ذات فاعلة في الخطاب الرّوائي تواجه في الأمكنة مسالك ومسارب وعرة، تنحدر من عائلة أو جماعة، في علاقة انفصال واتّصال بين كرّ وفرّ، بين دخول وخروج، ثبات وتأرجح وبين انتماء ولا انتماء. تمرّ بظروف صعبة متقلّبة تشبه فصول السّنة الأربعة المتوافقة العدد مع فصول الرّواية. هذه الحالة من عدم الاستقرار تؤدّي إلى حياة اجتماعيّة مشرذمة. وهذه البنية الاجتماعيّة تضعنا أمام امتحان الهويّة، والانتماء، والمواطنة.

يلاحم جبّور الدّويهي بين عنوان الرّواية الخارجيّ والعناوين الدّاخليّة للنّصّ: الخُزامى وأشياء أخرى، بيروت؟ هاكَ بيروت، أنت أحمد؟ يراعة الليل، فيشّد المتلقّي، ويحفّزه على التّقدّم في القراءة للكشف عن الدّلالات القصديّة في النّصّ، و"كلاهما لا يشكّل وحدة مضمونيّة تدلّ على المغزى العام للرّواية بمعزل عن النّصّ"(توام، 2016).

في "شريد المنازل"، حمل العنوان فضاءً يجمع الزّمن الماضي، والمستقبل والمكان الّذي يختصّ به، وهو المنازل. فشخصيّة الشّريد تمثّل طبيعة العلاقات الاجتماعيّة، الواقع، والوجوديّة، والرّوح الثّقافيّة في الإطار المكانيّ المنازل، وليس المنزل. في هذا الإطار، تتأرجح بنية الخطاب في الرّواية، بين دلالات متنوّعة حيث ارتبطت الشّخصيّات بالأمكنة، وعكست مظاهر ثقافيّة وقيمًا. من هنا لا بدّ لنا من الانتقال إلى منازل الشريد "نظام" وفق العنوان.

يستهلّ الرّوائيّ جبّور الدّويهي متنه الحكائي بالتّنقّل من منطقة إلى أخرى دون سابق إنذار، يصوّر كلّ ما هو ثابت ومتحرّك في كلّ من بلدة "حورا" الجبليّة، ومدينة "طرابلس" السّاحليّة بالتّناوب، فيرصد في كليهما البعد الهندسيّ إلى ما هو أبعد من المكان. فينقلنا لاحقًا إلى العاصمة بيروت، ومن مكان إلى آخر، حتّى يخال المتلقّي أنّه لا يقرأ أحداثًا لرواية واحدة، بل عدّة روايات. نبدأ بالأبعاد المكانيّة للمناطق قبل الحرب الأهليّة اللبنانيّة، ثمّ أثناء الحرب.

يبدأ الرّوائيّ سرده الحكائيّ بحديثة عن بلدة "حَورا". وأوّل ما يشدّ انتباه المتلقّي هو اختيار الرّوائيّ لهذه التّسمية. إذ بعد البحث والتّدقيق، وجدنا عند عبور قرية حدث الجبّة في الشّمال موقعًا اسمه "الحَورا"، حيث الرّمل يحور ويدور، ثمّ بلدات "البريسات"، "الدّيمان"، "حصرون"، وهي بلدات تتربّع في قضاء "بشرّي".

إنّ البحث في المعنى المعجميّ للفظة "حَورا" هو، "الحَوْر: الرّجوع عن الشّيء وإلى الشّيء، حار إلى الشّيء وعنه حَوْرًا [...]، وفي الحديث: من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك، حار عليه؛ أيّ رجع إليه ما نسب إليه [...] والحَوْر: النّقصان بعد الزّيادة، لأنّه رجوع من حال إلى حال، وقيل: معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها"(ابن منظور، 1992). ولا يختلف كثيرًا عمّا هو موظّف في نصّ الرّواية.

فالرّوائيّ يشير إلى هذه البلدة الّتي استقبلت العديد من المصطافين القادمين من السّاحل الشّمالي اللبناني "طرابلس"، وما بدّلت أحوالهم، من الطّارئ المستجّد فالرّجوع إلى حالهم، أي قبل وبعد الحرب اللبنانيّة. ومنها تنطلق الرّواية، من البساتين، وبها تنتهي سفرًا دائريًّا. والأشياء في تحوّلها، تمضي بشكل دائريّ عبر مراحل متعدّدة، تنتهي بنتيجتها إلى المنطلق الّذي انبثقت منه، وكأنّ هذا الأمر مرتبط بشكل لا واعٍ بدائريّة الأرض، وحركتها المشابهة لشكلها (سعاده،2002) ، الانتماء حياة موت.

يأخذنا التّأويل إلى ناصية أخرى، فالرّوائيّ اختار كلمة "حورا"؛ ليقرّبنا إلى الحال المتبدّلة الّتي تعيشها البلدة، قائلاً: "فجأة صار الاصطياف في حَورا أقرب إلى العدوى"، وبذلك يومئ إلى التّبدّل السّريع الحاصل المستجِد على هؤلاء، جرّاء العَدوى. والعَدوى أصله من عَدا يَعدو إذا جاوز الحدّ، والعَدوى النُّصرة والمعونة (ابن منظور،1992). فهل هذا التّبدّل وفق تعادي القوم على النّصرة والمعونة؟ أم على التّجاوز للحدّ وخروج إلى البغضاء؟

يحرّك الرّوائيّ شخصيّاته داخل الإطار المكاني المتعالق بتتابع الأفعال في الزّمن والفضاء الرّوائيّ، وتضافرها يؤدّي إلى الوعي بسلوك الشّخصيّات الرّوائيّة. عديدة هي الأماكن المطروقة في النّصّ الرّوائيّ، والنّظر إلى هذه الأماكن يلحظ شمولها فضاء الرّيف وفضاء المدينة. نتتبّع شخصيّة "نظام" في مجالاته بين الإقامة والتّنقّل بين المنازل، ومن خلال تجربة الشّخصيّة الرّوائيّة فيها.

3- البيوت / المنازل

يقول **غاستون باشلار**(Gaston Bachelard): "البيت هو ركننا الأساسيّ في العالم" (باشلار،1984، ص.36) ، وإذا تتبّعنا الأبعاد الدّلاليّة للبيت، نلاحظ أنّه المرتكز الّذي يحدّد سلوك الشّخصيّات، وتكاد تكون العلاقة الأوثق بين الشّخصيّة، والبيت هي علاقة "نظام" ببيته، ومَظهر من مظاهر الحياة الدّاخليّة لكلّ فرد من الأفراد. فالأماكن بأبعادها الهندسيّة تحمل بُعدًا إنسانيًّا، كما يقول باشلار(Bachelard)، وظيفة التّعبير عن ذاتنا الإنسانيّة (باشلار،1984). وهكذا تتحدّد مجالات الدّخول إلى المكان الرّوائيّ، عبر الدّوائر الآتية: أماكن الإقامة الجبريّة والاختياريّة، المغلقة والمفتوحة.

يعيش "نظام" بين منازل كثيرة: بيتي الأهل، الأوّل قائم في مدينة الميناء السّاحليّة، والثّاني في بلدة "حَورا" الجبليّة، في بيت "رخيمة وتوما" في "حورا"، حيث تربّى معهما، والثّالث هو الشّقة السكنيّة المستأجرة في بيروت العاصمة محلّة المنارة. نبدأ بالأماكن الجبريّة.

3-1- الأماكن الجبريّة المغلقة

تتميّز هذه الأماكن بعدم الثّبات، وتمثّل فضاء مغلقًا، حيث تصبح الشّخصيّة منطوية على ذاتها، فتتطلّع دائمًا إلى منفذ يريحها، ويبعدها عن هاجس الوحدة واللاأمان.

- **بيت أهل "نظام" في حَورا**

إذا كان البيت هو عالم الإنسان الأوّل، به تبدأ الحياة، كحاضن وملجأ له، لا بدّ أن ينظر إلى الدّلالة الكامنة فيه، لا أن يُنظر إليه كمظهر خارجيّ هندسيّ فقط. البيت مربوط بمنظور الرّوائيّ في سرد الأحداث. بين السّرد والوصف والحجاج والتّفسير، تتكشّف رؤية الرّاوئيّ إلى علائقيّة البيت الّذي استأجره محمود العلميّ بأنّه "جميل الواجهة، سقفه عالٍ، وأمامه مصطبة يمكن إخراج الكراسي والجلوس عليها لاحتساء القهوة بالهال عصرًا، وتأمّل المقرّ الصّيفيّ للبطريركيّة المارونيّة يغرق تدريجيًّا في روعة المساء"(الدويهي،2012).

فالمعاني إن دلّت على شيء، هي محوريّة المصطبة، حيث اقتضت العادة عند أهل الرّيف التّمتّع بالطّبيعة والمناظر، وما إمكانيّة إخراج الكراسيّ واحتساء القهوة بالهال، وتأمّل المقرّ يغرق في روعة المساء إلاّ نيّة ورغبة الانصهار بالموقع، بالانتماء المكانيّ، على اختلاف مذهب مريديه. هو المسلم السّنّي الطّرابلسيّ، الّذي يتمتّع بسكناه قرب مقام دينيّ. من المكان المتبدّل، تتبدّل "بهم الحياة في يوم واحد، فلم يناموا جيّدًا على علوّ ألف ومئَتَي متر في الليلة الأولى الّتي كانت حارّة وحابسة أكثر من ليالي الميناء، حيث هواء البحر يلطّف الأمسيات. تقلّبوا في أسرّتهم، وبقي يُسمَع صرير حديد التّخوت حتّى ساعة متأخّرة قبل أن يستسلموا للنّوم بُعَيد السّاعة الثّانية صباحًا"(الدويهي،2012).

فالبيت حضوره الأقوى والأشد تأثّرًا في أماكن الإقامة. "يرتبط البيت هنا بساكنه فيعبّر أكثر من سواه عن الأحوال النّفسيّة الّتي يعيشها شاغله، أو الوضعيّة الخاصّة الّتي تميّز وضعه الشّخصيّ. وهو غير منفصل عمّا يجري خارجه"(سويدان، 2006)، بل يبدو في صيغة النّصّ متأثّرًا بهذا الخارج، حتّى يتحوّل من موضوع راحة إلى موضع للقلق والاستيهام الكابوسيّ الخانق. كيف؟

انعكست هذه التّحوّلات على التّغيير العلائقيّ ضمن الأسرة، فـ"

الصّبيّ، نظام، نهض من سريره قبل طلوع الفجر باكيًا، حاملاً مجسّم طائرة نفّاثة كانت شركة الخطوط البريطانيّة أهدتها لوالده، تشجيعًا لجهوده، كي يزيّن به مكتب السّفريّات. تشبّث الصّغير بها خلال إحدى الزّيارات الّتي كانت أمّه تباغت بها أباه في المكتب، وبات لا ينام بدونها. يتأمّل تفاصيلها، ويقرأ المكتوب عليها قبل أن يغفو. هو لا يغفو إلاّ إذا تأكّد أنّه محاط أيضًا بسيّارة الجاغوار وبالسّعادين الثّلاثة المحشوّة قطنًا: الأعمى والأبكم والأطرش، ومسبحة انتزعها من يد عمّته زين الدّار يوم كانت تتلو عليه أسماء الله الحسنى.

فتح عينيه كأنّ صوتًا صارخًا أيقظه. نهض وخرج من غرفته إلى الشّرفة، وهو يشهق باكيًا، فاستفاقت شقيقته الكبرى ميسلون على صراخه، ولحقت به حافية خائفة عليه أن يؤذي نفسه، وهو يمشي نائمًا. يتشاجران ولو مرّة في اليوم، لكن عند حاجته إليها، تحضر بلا نداء. وضعت يديها على رأسه، وتمتمت آية قرآنيّة سمعتها من عمّتها، ولم تحفظها جيّدًا، ثمّ جلست بجانبه، فهدأ قليلاً، لكنّه بقي تحت وطأة المنام، سألها هامسًا:

- لماذا لا تأتي أمّي لنجدتي، عندما أناديها؟
- أين؟
- في شارع بور سعيد...
- ماذا تفعل في شارع بور سعيد؟
- أنا هارب، والسّماء تمطر والنّاس في الميناء يسخرون منّي، وهي لا تردّ عليّ، لا تسمعني" (الدويهي،2012).

الأحلام الليليّة تعبير رمزيّ ومُموّه عن الرّغبات والمخاوف. لا شكّ أنّ الحلم يروي رغبة الطّفل بالعودة إلى الرّحم الأوّل، إلى حالة الوجود الرّحميّ، إلى الفردوس المفقود، رمز لاواعٍ للأمن والطّمأنينة والاكتفاء (نجم، 1991، ص.7)، غير المتوافر في هذا المكان غير المألوف، رغم إحاطة نفسه بأشيائه الحميمة. ولو تفحّصنا المكان عن قرب، لوجدنا فيه صدى لصوت القلق، ولروح نستطيع سماعها موجودة في الدّاخل، داخل زمان ومكان لذات ترغب بالهروب من التّفكّك.

أشياؤه الحميمة هذه بحوذته، لعبة القردة الثّلاثة المبتكرة من لوحة القردة الثّلاثة الّتي تقع في معبد توشوغو في اليابان، تجسّد قصّة أمّ تعلم ابنها الفضائل الّتي يجب أن يتحلّى بها الإنسان؛ لا أرى شرًّا، لا أسمع شرًّا، لا أتحدّث شرًّا. عِبرة توصي بعدم الثّرثرة أو النّميمة، استراق السّمع أو النّظر، هي سلاح الإنسان العاقل لمواجهة المسائل الحياتيّة. أمّا الطّائرة والشّاحنة فلعبتان ترمزان إلى الرّغبة في التّنقّل، والمسبحة من عمّته تعبّر عن الصّلة المذهبيّة. لعلّ التملّك أو السّيطرة على الأشياء وتجميعها هو ملجأ أساسيّ تجاه الرّغبات المكبوتة للتعبير عن الانتماء.

سيطرة "نظام" على ألعابه، محاولة منه لتحقيق إشباع الإحساس بالحياة والسّيطرة على المصير الآمن. فهذا الطّفل يعيش حالة خوف من فقدان عاطفة الأمّ، وأب يدخل المنزل "يتمدّد فوق الأريكة في الصّالون، رافضًا الدّخول إلى غرفة النّوم، مدّعيًا في كلّ مرّة أنّه لا يريد النّوم طويلاً ما يمنع على الجميع الاستماع إلى الرّاديو، أو حتّى التّحادث خشية إيقاظه (الدويهي،2012).

لجوء الطّفل إلى شرفة المنزل/الخارج الفضاء الأليف مع شرفة الميناء، تخفي رغبة دفينة من البتر. يقول **فرويد** في هذا الصّدد: "إنّ المنزل هو المظهر

المثاليّ الوحيد... للشّخصيّة الإنسانيّة" (Freud, 1994). ولتوضيح فكرة البتر، أستعرض بلمحة الإواليّة الدّفاعيّة الّتي لجأ إليها الطّفل "نظام"، وربطها بوظيفة المكان.

فالدّاخل من مكان البيت الهندسيّ في حَورا، يؤطّر حالة من الغربة، فيبحث "نظام" عن الطّمأنينة خارج الغرفة إلى الشرفة، إلى الفضاء الرّحب الّذي اعتاده في الميناء، مدينة الأفق، الأفق الواسع المعتاد، ليعود ويجده في حضن "ميسلون الدّافئ"، فيستكين وينام. يقول **خريستو نجم** "في كلّ مرّة يتعرّض الطّفل لخطر خارجيّ، تعاوده رغبة شديدة في النّكوص إلى حضن الأمّ" (نجم، **1991** ص. 7)، ما يبرّر استكانته في حضن شقيقته والعودة إلى النّوم. يشير **فرويد** إلى أنّ النّكوص يحصل عندما تتعرّض نزوة بشقّها الوظيفيّ، أي: بسعيها نحو الإشباع، إلى عوائق خارجيّة (Freud,1994).

من هنا تبدأ الرّحلة، حيث يحلم "نظام" بأن ينتقل من هذا المكان الغريب عن الوالد الغائب الحاضر، عن حضن الأمّ البارد المتواري عن الحضور الفاعل. حضور يتمثّل بنشر الشّعور بالاستقرار عند جميع أعضاء الأسرة ضدّ كلّ عوامل الاضطراب، والقلق الموجود في عالم متغيّر. من هذا المكان الذي يشعر بأنّه غريب عنه، يلوّح الطّفل "نظام" بالطائرة، حلم الانتقال، والتّنقّل. يلعب ويروّح عن كربته ويفرّج عن ضغوطاته.

غريب عن "صباح" والدته البيولوجيّة الّتي بدورها تسعى للتّعويض عن شعور الغربة الّذي انتابها أيضًا جرّاء الانتقال المفاجئ، ونزول الوالد اليوميّ إلى المدينة، إذ لا طاقة له على فراق مدام جانيت، سكريترته، غريب عن بيت سرعان ما كان يعبق برائحة التّنباك العجمي وسط أحاديث نساء المدينة المصطافات وثرثراتهن، ينسحب من الدّاخل الغريب إلى الشّرفة إلى المصطبة، الفضاء الخارجيّ، مترقّبًا كلّ ما يعبر في الطّريق(الدويهي، 2012).

غير أنّ موقفه هذا يتناقض مع رغبته في الخروج من صدر والدته البعيد عن التّفرّد به، "لم يجد له مكانًا في البيت قبل الظّهر، فينزل إلى الفسحة الخلفيّة" (الدويهي، 2012). لقد استبدلته "صباح" في دارتها بأشياء كثيرة؛ صبحيّات المصطافات، "شعرها، أظافرها، طلاء وجنتيها، طيّات ثوبها الّتي ثبّتتها بالمكواة (الدويهي، 2012) "، ولاحقًا التّفرّغ لأخويه التّوأمين، ثمّ التّنازل عنه تدريجيًّا لـ"توما" وزوجته "رخيمة"، كي يترعرع بين أحضانهما في "حَورا".

فـ"نظام" كان منسيًّا، مُهْمَلاً، يلعب بمعيّة صبيّين جوار البيت، ولا يعود إليه إلاّ لحاجات فيزيولوجيّة، عندما يسمع منبّه سيّارة والده، يعود إلى الدّاخل لتناول الطّعام، حيث يلتهم كلّ ما تصل إليه يداه بعد أن نسي نفسه بلا أكل طوال بعد الظّهر، لينسلّ بعدها ومن جديد إلى الخارج؛ لأنّ محمود ينام في الصّالون، ما يمنع الجميع من التّحادث، أو الاستماع إلى الرّاديو؛ ليرتاح من عناء الطّلوع والنّزول اليوميّ(الدويهي، 2012).

في هذا الجوّ، لم يجد "نظام" المجال لتحقيق رغبته، وكإواليّة دفاعيّة بوجه رغبة مرفوضة، يحدّدها **فرويد** بأنّها عمليّات تتوخّى إزالة العوامل الّتي تهدّد وحدة الشّخصيّة" ((Freud, 2001(A))، كان لا بدّ من البحث عن البديل، فالرّغبة المكبوتة تبقى فاعلة في اللاوعي، تنتظر فرصة للتّفاعل والخروج إلى الضّوء، لكن في حالة مموّ((Freud, 2001(B) . فها هو "نظام" ينسلّ إلى الخارج؛ ليعاود لعب الكرة مصوّبًا على رؤوس نساء كان قد غطّى الجدار برسوم لهنّ "بالفحم الأسود، مع ضفيرتين لكلّ منها، كتب تحتها أسماء أمّه، وشقيقته، وضيفات الصّبحيّات، أم أحمد، فاطمة الحلواني، أو الحاجّة افتخار. يتراجع، ويركل الكرة، ويهلّل فرحًا ما إن يصيب وجه إحداهنّ إصابة مباشرة على الجدار" (الدويهي، 2012).

ينقلنا الرّوائيّ إلى مكان آخر من خلال ركل "نظام" الكرة عاليًا، وحطّها في بستان "توما"، ليصبح البستان مركز تحوّل رئيسيّ في حياة الشّخصيات الّتي تشغله، فإلى جانب العلاقة الوطيدة بين قاطنيه والمكان، فهو مصدر الحياة لها، تمارس كينونتها وحضورها فيه. خلف هذه الأسوار "زوجان تقدّما في السّن، ولم يرزقا أولادًا، لأنّ رخيمة الزّوجة، كما جزم سمسار البيوت المترنّح، مثل عمّتها صوتها يرتجف ولا تحبل" (الدويهي، 2012)، وطفل يركض للدّخول إلى عالمها فرحًا لاهثًا بعد أن سمع بوقت "قصير صرير الباب" (الدويهي، 2012) يُفتح. فإلى بيت "توما" و"رخيمة أبو شاهين" في حَورا.

3-2- **الأماكن الاختياريّة**

- **بيت "توما" و"رخيمة أبو شاهين" في حَورا**

للمرّة الأولى ظهر "توما" للصّبي "نظام" "حاملاً مقصّ التّقليم بيد، وكرة "نظام" الضّائعة باليد الأخرى. كان مربوع القامة، عالي الكتفيَن، وأقرب بهندامه المرتّب إلى أصحاب الحرف الأنيقة: بنطال مع حمّالات على الكتفَين، قميص نظيف مزرّر إلى أعلى، وقبّعة بناما بيضاء. لا تفضح عمله في البستنة سوى جزمة الكاوتشوك الموحلة [...] لم يكن نظام العلميّ، قبل لحظات يتخيّل وجود كلّ ذلك خلف هذا الجدار الرّديء." (الدويهي، 2012).

بين البيت والبستان، وبين صلة "توما" بالأرض وقوّة السّاعد ونظافة ثيابه ينتمي "توما"، بحسب **بورديو (**Bourdieu**)** إلى الطّبقات الشّعبيّة الّتي تفضل أن يكون داخل بيوتها نقيًّا ونظيفًا وأن تكون ملابسها بسيطة، تثمّن القوّة العضليّة بوصفها بُعدًا للفحولة (براز، 2007) ، وقّوة إنتاجيّة. من الدّلائل الّتي تشهد على النّظافة والقوّة الإنتاجيّة، فـ"رخيمة" تضع "دائمًا زهر اللافند في جيب المريول الّذي ترتديه حماية لفستانها،[...] تعتني برائحتها، تفتح القلب رخيمة" (الدويهي، 2012)، أيضًا تجهد في تصنيع مؤونة من كلّ ما يطيب لها: البندورة الخضراء الصّغيرة، الباذنجان المحشوّ بالجوز واللوز، المشمش والعنب المنقوع بالسّكّر(الدويهي، 2012).

لعلّ هذا التّميز بين البيتين يحمل فواصل وجوديّة، يتعالقان مع سير الأحداث. تحمل "نظام" إلى الانتقال من مكان إلى مكان، ومن حالة إلى أخرى. فالمكان

"ليس سوى تخطيب لسلسلة الأماكن الّتي أسندت إليها مجموعة من المواصفات لكي تتحوّل إلى فضاء مؤثّر. وبهذا يعدّ التّفضّي برمجة مسبقة

للأحداث وتحديدًا لطبيعتها، فالفضاء يحدّد نوعيّة الفعل، وليس مجرّد إطار فارغ تصبّ فيه التّجربة الإنسانيّة" (النابلسي، 1994).

استقبله "توما" في عالمه، يقشّر له الإجاص من صنف مخّ البغل، يعلّمه تحضير دبق للعصافير، الإمساك بالزيز، بعد أن يربط رأسه بخيط رفيع ويحبسه في علبة الكبريت المحشوة بورق الورد، يحذّره من أن يمدّ يده إلى أشجار الجيران، فـ:

"توما" يشعر بدفء كبير، ورخيمة تضمّه، لا يشبع من رائحتها "الخزامى وأشياء أخرى" كما جاء في عنوان هذا الفصل، بينما أمّه "صباح كانت متبرّجة، لا تظهر على أحد إلاّ وهي في أفضل حال، مرتّبة دائمًا. لا يمكن العبث بها، لا يقترب منها وتقف على دفاعاتها: أبعد يديك!

لا يلامسها إلاّ ويخرّب فيها شيئًا، شعرها، أظافرها، طلاء وجنتيها، طيّات ثوبها الّتي ثبّتتها طويلاً بالمكواة. رخيمة مباحة، مستسلمة، يفعل بها ما يشاء، يخرّب ما يشاء، يجلس في حضنها ساعة بكاملها، يرسم على وجهها ويديها، يفتل لها شعرها خصلاً ويمسح فمه المليء بالتّوت بمريولها" (الدويهي، 2012).

3-3- **الأماكن: بين الانغلاق والانفتاح**

يعيش "نظام" في الرّواية صراع الدّاخل والخارج، الانتماء واللا انتماء. يعتبر **يونغ (** Jung) أحلام الماء بأنّها تفسير أموميّ، وواحد من التّأويلات الرّمزيّة الأكثر وضوحًا في علم الأساطير (Jung,1973). فالأمّ موضوع أزمة "نظام"، وتمثل الرّغبة الخروج إليها، والذّوبان بها. وهذا ما يحاول "نظام" فعله، الخروج من باب بيت الأهل، للدّخول إلى عالم استبداليّ آخر لتحقيق الإشباع.لا تتوّقف هنا العلاقة بين "نظام" والأمّ "صباح"، بل يتابع باللاوعي الانتقام منها، ويرغب في زوالها. وكيف لا؟

لقد وضَعت توأمين. أخذ يتفرّج عليهما "يرضعان معًا من صدر أمّهما. انتابته غيرة حادّة طالب خلالها دفعة واحدة بكلّ حقوقه الّتي أهملها في غيباته الطّويلة لدى توما ورخيمة. أصابته حمّى" (الدويهي، 2012)، ولكنّه أدار ظهره، وعاد إلى البستان. أدخلته "رخيمة" معها رحاب الكنيسة من باب النّساء (الدويهي، 2012)، تآلف مع المكان، و"لفت تجواله المستمرّ في الكنيسة انتباه المصلّين الّذين كانوا يتطلّعون ناحية رخيمة؛ لعلّها تمسكه عن هذا التّسكّع غير المألوف لولد لا يرسم إشارة الصّليب عند مروره أمام المذبح" (الدويهي، 2012).

انفتح على عالم "رخيمة" برحابة صدر، ورفض العودة إلى الأهل، أو النّزول إلى الميناء، وما إن يمكث في بيت الأهل حتّى تجده حزينًا لا يلعب ولا يضحك، يتذمّر طوال النّهار، يصدر أصواتًا يائسة، وتسليته الوحيدة الدّخول إلى جامع البحر مع رفاقه والتّحلّق حول الشّيخ لحفظ القرآن (الدويهي، 2012). كان ثابتًا في حنقه ونفوره من والدته إلى أن أعادته إلى حورا (الدويهي، 2012) ، وكسب الجولة. هناك تركه أهله، في حَورا؛ فقد فرّ محمود العلميّ المطلوب إلى القضاء إلى سوريا، والتحقت به عائلته.

في هذا الإطار، تتفاوت التّقاليد والمعتقدات فيما بينها بالارتباط المكانيّ، القائمة على اختلاف المفاهيم، كما تباين الاتّجاهات التّعصبيّة وسمات الشّخصيّة، من خلال اتّجاهاتها نحو الأشياء أو الأشخاص. هذا الحيّز انعكس على تفكير آل العلمي، تجلّت في تعزيز التّقاليد العائليّة والاجتماعيّة المتوارثة، وعلى "رخيمة" و"توما" بالغربة والفزع.

داخل بيت "توما" المنفتح، نشأ وترعرع "نظام" في محيط قائم على احترام الأديان والقيم الإنسانيّة. فـ"رخيمة" مسيحيّة الصّلة بالمعاملة الحسنة، وبالدّعاء عند ارتياد الكنيسة، و"توما" قدوة "نظام" في احترام ممتلكات الغير، وعزّة النّفس، والكرم، والانفتاح الدّينيّ، فكان "يعرف مواقيت الأذان الّذي تبثّه إذاعة القاهرة يوميًّا، لا يفوّت عليه إلاّ نادرًا ما يتلوه الشّيخ عبد الباسط عبد الصّمد" (الدويهي، 2012). أمّا خارج البيت، فكان لا بدّ لـ"نظام" المراهق التّعامل مع المحيط الخارجيّ، في حورا، والأهل والرفاق.

"تعدّ هذه المرحلة بداية أشكال التّمييز الضّارة من نوع الفعّال، حيث يأخذ صاحب التّعصّب على عاتقه السّعي إلى منع أعضاء الجماعات الخارجيّة من الحصول على التّسهيلات والامتيازات الّتي يتمتّع بها الآخرون" (الدويهي، 2012). أليس هو خارج صلة الدّم، المسلم والغريم على أملاك "توما"؟

دخل "نظام" سنّ المراهقة، "ندرت لقاءاته بأهله، وزاد إنفاقه على رفاقه من دون منّة، يحاسب تلقائيًّا في المطاعم، فلا يتكلّف أحد حتّى مشقّة الادّعاء إنّه يرغب في الدّفع من ماله. وكان إذا ما فرغت جيوبه، يستدين، ولا يقبل أن يُسهم أحد من أترابه في النّفقات، وأصحاب الدّكاكين والمقاهي يرفضون بدورهم المال من أحد غيره، ومنهم من يضاعف المبلغ المستحقّ على نظام يوم يأتي توما لتسديده، وإذا عاتبت الدّكنجيّ زوجته سرًّا، أفهمها أنّ أهل البلدة أحقّ بأموال توما أبي شاهين وأملاكه الّتي تذهب بالتّأكيد إلى هذا العجيّ" (الدويهي، 2012).

بالمقابل كان "نظام" يرتّب وِجهة الرحلات، قادرًا على إيجاد أسباب للتّسلية. لولاه لكانت مواعيدهم رتيبة. "هم ما كانوا يحبّونه لماله فقط، بل لأنّه لم يحفظ ضغينة، " (الدويهي، 2012).

في ظلّ هذا التّهديد المكانيّ غير المعلن، الّذي تشغله حكايات تتنوّع بين حكاية طفولته، وحكاية والده مع معارفه وسجنه، وتواري حضن الأمّ، وحكاية المروءة وأثرها في نفسه وفي نفوس بعض الرّفاق، الصّدمة من اعتراف إحدى فتيات حَورا هامسة أنّها لو كانت في مكان آخر، لأذاقته الملذّات ما طاب، يشعر "نظام" باللا انتماء، والفضول بالبحث عن تجربة أخرى بعيدًا عن حَورا، في العاصمة بيروت، يومها وقف نظام في باب غرفة الجلوس وأعلن على "رخيمة وتوما" قراره، قائلاً:

- "بعد شهر أنا نازل إلى بيروت..[....]

- أنزل إلى بيروت، أتسجّل في الحقوق، في الجامعة اليسوعيّة..." (الدويهي، 2012).

سعى "نظام" إلى إقامة اختياريّة أخرى، رغم "التّظاهرات والفدائيّين والدّنيا خراب" (الدويهي، 2012) في بيروت. تماطل "رخيمة" وتشترط عليه اقتبال سرّ العماد: "إذا تعمّدت يرسلك إلى بيروت" (الدويهي، 2012). مسلك آخر من الصّراع، من الانتماء، تجربة جديدة وعبور آخر. تأريخ حضور النّاس في المكان، التّمسّك بالدّين في زمن التّحولات، في عصر عولمة تجتاح الفكر والوجود. بيروت؟ هاك بيروت.

3-4- فضاء المدينة

يمكن اعتبار انتقال الشّخصيّة "نظام" من البيت إلى بيروت صورة عن التّحوّل الّذي سيجري بسبب هذا العبور، تحوّل يرسم العلاقة بين "حَورا" في بداية الرّواية وفي نهايتها، تحوّل تمثّل بالانتقال إلى ضفّة أخرى من المسرح الإنسانيّ.

إنّ تجربة عبور الطّريق "من حَورا إلى العاصمة، تحمل دلالة خاصّة. إذ، يشير من خلال موقعه إلى الطّابع العام الّذي يسم وضعيّة نظام" مع المرحلة المقبلة. "سيدخل بيروت والدّماء لركبتيه" (الدويهي، 2012). وصل ملويّ الكاحل، عرجًا إلى المدينة، قفز من الباص قبل أن يتوقّف (الدويهي، 2012). تعابير تعاين تعثّره في المدينة، بدءًا من شوارعها. وما الدّماء إلاّ تمثيل عمّا ستؤول إليه أمور المدينة وقاطنيها. ومحاولة النّهوض رهان لإصلاح ما اختلّ، قوامه الممارسة العفويّة والاندفاع السّاذاجان.

- **أماكن اختياريّة**

وعليه، كانت العاصمة على مقربة من التّغيّرات الحاصلة في المنطقة، إلى أن "انفجرت قرابة العاشرة بيروت دفعة واحدة" (الدويهي، 2012). يقول نجاح واكيم، في هذا الصّدد، إنّه "منذ العام 1975، بدأت في لبنان فصول مؤامرة متعدّدة الأطراف، خارجيّة وداخليّة، أدّت إلى تدمير مقوّمات الدّولة وتمزيق المجتمع، وتهديد الوطن كيانًا ووجودًا. كانت الحرب شديدة الشّراسة والقسوة" (واكيم،2000)، قهر اللبنانيّون وذُلّوا بسلاح مليشيات الحرب والطّوائف والعصبيّات المدعومة من الخارج. ما أثّر بشكل مباشر على اللااستقرار في الوطن.

"كان هذا الصّراع يسير بين اتّجاهين:

- الأوّل: بين الاستعمار الجديد الّذي تقوده الولايات المتّحدة، وبين قوى الاستعمار التّقليديّ في المنطقة، أي: بريطانيا وفرنسا اللّتين خرجتا من الحرب العالميّة الثّانية مثخنتين بالجراح.
- الثّاني: صراع دوليّ جديد على مستوى العالم بين المعسكر الاشتراكيّ بقيادة الاتّحاد السّوفياتيّ، والمعسكر الغربيّ بقيادة الولايات المتّحدة الأميركيّة. وكان أمرًا طبيعيًّا ألاّ تبقى المنطقة العربيّة بمعزل عنه" (واكيم،200).

- **أماكن السّكن/ شقة "نظام" في المنارة**

في وسط العاصمة، الشّقة غير منفصلة عن فضاء المدينة الخارجيّ، خاضعة للعوامل الخارجيّة، مرتبطة بأحوال شاغلها. فالشّقّة هذه قائمة في حيّ المنارة، في الطّابق الأخير من بناية تطلّ على البحر. استأجرها "نظام" من "أولغا فيليبوفنا" سيّدة روسيّة تعتزم السّفر إلى لوس أنجلس.

ترتبط الشّقة هنا بساكنها، فتعبّر أكثر من سواها عن الأحوال الّتي يعيشها شاغلها. تؤدّي وظيفة مهمّة في حياة "نظام"، يحقّق فيها الإشباع، كذلك يعيش صراع الدّاخل والخارج. هي غير منفصلة، كما أسلفنا، عمّا يجري خارجًا، بل مرتبطة بهذا الخارج خاضعة لأماكن العبور، محاطة بالفلتان الأمنيّ الخارجيّ الّذي بدّأ يلفّ المدينة من عدّة جهّات. الرّفاق أحبّهم، فتحوّلت الشّقّة إلى "مقرّ اجتماعات لخليّة فرج الله الحلو التّابعة لمنظّمة العمل الشّيوعيّ في لبنان" (الدويهي، 2012). ينادي بعضهم بعضًا بالرّفاق، وبالرّفيقات، أو بأسمائهم الحركيّة. أحبّوا نظام" لأخلاقه، رغم أنّ وعيه الثّوري ضعيف" (الدويهي، 2012).

أظهر لهم التّرحاب، صبّ لهم "نسخًا من المفتاح، يعطيها لكلّ من يقول إنّه جاء ولم يجده. لا يُبخل بالمأوى على من تسوء علاقته بأهله[...] أحصى وهو يقهقه فخورًا كيف أن سبعة عشر شخصًا على الأقلّ باتوا يملكون نسخة عن مفتاح" (الدويهي، 2012) الشّقّة، إلى حدّ الازدحام، وصار هو نفسه "يقرع الجرس طويلاً قبل أن يقدِم على فتح الباب بمفتاحه الخاص" (الدويهي، 2012). ومن خلال، هذه الفوضى بين الدّاخل والخارج، ينتهي الأمر إلى اجتياح الشّقة، اغتصاب مالكتها، تشريد ساكنها، سرقة محتوياتها.

من المعلوم أنّ البيت علامة تدلّ على الثّبات والاستقرار، والخصوصيّة، فعوض أن يتنعّم "نظام" بهذه الخصوصيّة، جعل المكان مقرًّا لاجتماعات الخليّة، وصبّ ما يزيد عن ثمانية عشر قفلاً، فالشّقة تبدّلت وظيفتها من المكان الخاص إلى العام، المُستباح، وعدد المفاتيح المستنسخة ترمز، بشكل أو بآخر، إلى عدد طوائف لبنان. فالوضع المكانيّ يستدعي الحجم الزّمنيّ، لأنّ المكان مرتبط بالوقت.

من هنا، فإنّ بيت المنارة مثّل فضاء انتمائيًّا اجتماعيًّا، يرمز إلى ملتقى كلّ الطّوائف تحت جناح الوطن. ومع تقدّم مسار السّرد، يسعى الرّوائيّ إلى إقامة علاقة جدليّة بين المكان والشّخصيّات من خلال الألفة والإحساس بالطّمأنينة. فالشّقّة شكّلت المسرح الإنساني، في جغرافيا واحدة مشتركة تجمع فئات متعدّدة في وطن قوميّ واحد، لها هويّة وطنية واحدة، مسرحًا للوطن، صورة لبنان الخدماتيّ، وبشكل خاص بيروت.

هنا حيّز مكانيّ تجتمع فيه مختلف الطّوائف، ومختلف الطّبقات الاجتماعيّة على اختلاف درجاتها ومستواها الثّقافيّة، مكان ذو أهميّة كبرى لدى

مريديه، مركز التقاء بين جميع القوى الشّبابيّة القادمة من مناطق وبلدان مختلفة، خلعوا عنهم ثوب الطّائفيّة، تبادلوا وجهات النّظر حول مفاهيم الحياة، إعادة النّظر في حياتهم الحاضرة وربطها بالمستقبل. كما تناولوا قضايا المجتمع الّذي ينتمون إليه، "المجموعات اليساريّة الّتي كان لقاؤه بها من باب الصّدفة، وليس من باب الخيار أو الانتماء" (دورليان، 2018).

من هذا الحيّز، حاولت الفئات الشّبابيّة أن تفرض نفسها كواقع اجتماعيّ ثقافيّ. شخصيّات رفاق "نظام" تعكس أشكال الصّراع الموجود في المجتمع، صراع التّحرّر من كلّ المظاهر الطّبقيّة ثمّ الطّائفيّة الّتي فرضت نفسها نتيجة اختلال توازن المجتمع اللبنانيّ، من أزمة عانت الدّولة من بسط سلطتها الدّاخلية، إزاء الزّحف والمؤمرات السّياسيّة على لبنان والمنطقة العربيّة، شاركت بها فئات لها أسبابها. بالتّالي، تدخّلات خارجيّة زكّتها استعدادات صغائر النّفوس إلى إشعال الفتن الطّائفيّة، فعوض أن يتكتّل الدّاخل ضد الخارج الغريب بالانفتاح على الإنسان كقيمة، تعزّزت الإرادة الفئويّة الطّائفيّة الانغلاقيّة، فصار المكان أرضية لطوارئ الخارج، حتّى تحوّل إلى ما هو عليه.

في هذا السّياق، تتشكّل مؤشّرات متعدّدة تدلّ على المخاوف الّتي تهدّد كيان الوطن، الفوضى من الدّاخل، حيث يزدحم المكان بين هرج ومرج وصراخ حتّى منتصف الليل، ما استدعى تدخّل قوى الأمن الداخليّ (الدويهي، 2012). كما الفوضى من الخارج؛ التّحرّكات الإرهابيّة القمعيّة المحيطة بالمكان بدءًا من تقطيع المعابر، السّلوك التّعصّبيّ تجاه الأفراد، القتل على الهويّة وصولاً إلى هجوم المسلّحين، على الشّقّة، يوم "دخل عليهم أربعة رجال، هكذا لا شور ولا دستور" (الدويهي، 2012)، مسلّحين، وصناديق تحتوي على الرّصاص، وبندقيّة وصلتهم حديثًا، يصوّبون عشوائيًّا، ليعرفوا حدود منظارها، "مركّزين على مبنى سكنيّ قريب، على باخرة في عرض البحر قبالة الشّاطئ أو أعالي جبل صنّين" (الدويهي، 2012).

لا يقتصر دخول المسلّحين إلى الشّقة عنوة، وجعل المكان عزلة موحشة على قاطنيه، وإنّما عرضة لطوارئ الخارج. المسلّحون يقتحمونها دون أن تحظى برعاية. تتغيّر وظيفة المكان وطبيعته ودوره، إلى اللاانتماء، إلى وضع ميدانيّ، وسجال طائفيّ، واتّهامات سياسيّة، وتبريرات المسلّحين بأنّ سبب معركتهم وطنيّة ضد الرّجعيّة والانعزاليّة، وأنّ الطّرف الآخر هو الّذي يريدها طائفيّة، يقول **سليم الحصّ:**

"إنّ الطّائفيّة متراس "يحتمي وراءه كل من يتعرّض للملاحقة [...] سلاحًا يدرأ به عن نفسه شبح المساءلة والمحاسبة. فلا غرابة في القول والحال هذه إنّ الطّائفيّة حصن الفساد والإفساد في المجتمع" (الحصّ، 2003).

ليس هذا وحسب، فمن تداعيات الحرب أنّ المسلّحين التّابعين للتّنظيم الشّعبيّ احتلوا الشّقّة (الدويهي، 2012)، أقاموا المتاريس (الدويهي، 2012)، ضيّقوا الحصار على "نظام" وأولغا. صارت غرفة الجلوس، "خارج البيت، شارعًا عامًّا، معبرًا لميلشيات التّنظيم الشّعبيّ" (الدويهي، 2012)، وعرضة لرصاص الطّرف الآخر (الدويهي، 2012). حصل "نظام" على وعد من الرّفيق "شمعون" بأن يتوسّط له "مع منظّمة فتح، مع "أبو جهاد" شخصيًّا لردع هؤلاء المسلّحين عن الشّقّة" (الدويهي، 2012). يحتار "نظام" ماذا يفعل؟ يحاول الاتّكال على نفسه، يطلب من "أولغا" البقاء في غرفة النّوم حتّى عودته.

ذات مساء، وجد باب الشّقّة مفتوحًا، خالية من المسلّحين، خالية إلاّ من "أولغا" المكوّمة على السّرير تبكي ممّا افتعله المسلّحون فيها (الدويهي، 2012). فالشّقّة تحوّلت إلى بؤرة رعب، وعنف، إلى وقاحة "هم أنفسهم عادوا في شاحنة صغيرة، وسرقوا كافّة محتويات الشّقّة، بقوّة السّلاح" (الدويهي، 2012). وبهذا تصبح الشّقّة المسكن المزيّف توازي اللامسكن. يشير يوري لوتمان (Youri Lotman) إلى أنّ "الشّقّة المشتركة تعدّ مركز عالم غير طبيعيّ. طيش القِوى الجهنّميّة" (لوتمان، 1988)، الخداع والخصومات وقعت فيها فعليًّا.

- **بيت الأهل في الميناء**

بعد مضيّ ربع قرن، ومع تداخل شخصيّة "نظام" منزل الأهل في الميناء، وعودته إليه، وجد أنّ:

"المقاعد تغيّرت ألوانها إلى عابقة، لم يعرف كيف يرتاح فوقها. السّتائر صارت داكنة أيضًا. لا يتذكّر البيت إلاّ مشرّعًا مشمسًا[...] على الجدران، آيات قرآنيّة مخطوطة، صورة عرس "صباح" و"محمود" نازلَين مسرح كولورادو أزالها "خالد" عن الحائط، لأنّه يعلّمونه أشياء وأشياء (الدويهي، 2012).

الانفصام المكانيّ عن منزل الأهل في الميناء هو صورة عن انفصام الذّات/ اللاانتماء، وجزء أساسيّ من تمزيق كيانه. لقد تغيّرت ألوان البيت، وأُنزِلَت صورة الوالدين بعد موت الأب، وتقهقرت سلطة الأمّ، وقائع تُقَدَّم بطريقة متداخلة مع رفض التّوأمين أن ينافسهما "نظام" على الميراث، بحيث أرجع شقيقه "خالد" هذا الحقّ إلى أصول الشّريعة الإسلاميّة، واتّهامه علنًا بالتّخوين لخروج عن المعتقد وأصول الدّين لمّا اقتبل سرّ العماد، فارتكب المحظور، تركيبة لم يستطع تحمّلها أخواه التوأمان "خاصّة في حالات الأزمة الأهليّة وصراعاتها، إذ من غير الجائز أن يرتدّ إنسان عن طائفته، ويخرج عنها. فهذا سلوك يستحقّ الموت" (دورليان، 2018) **والنّبذ.**

لذا، يرفض الشّيخ الصلاة على جثمان "نظام"، بعد أن تكبّدت ميسلون مشقّة حمله من بيروت باجتيازها الحواجز المسلّحة، لتعود وتحمله في رحلة بين "الميناء" و"حورا"، تبحث عن مكان انتماء تثبّت فيه جبّانة تدفن فيه جثمان أخيها "نظام". لكن يبقى مكان المدفن غامضًا وسط تكاثر الرّوايات وتأويلات الرّوائيّ.

وعليه، يعيش "نظام" صراعًا ثقافيًّا، دينيًّا، اجتماعيًّا، وانتمائيًّا نتيجة تعارض ملكَتين؛ من جهة، ملكة الأقرباء القائمة على المحافظة على التّقاليد، ولا سيما الدّينيّة المتمثّلة بالتّوأمين، ومن جهة أخرى ملكة الأولياء الّذين في غالبيتهم يعيشون عملية اندماج تترجم في شكل ممارسات وتمثّلات تميّزهم

قليلاً عن المجتمع التّقليدي، كـ"توما" المنفتح دينيًا و"رخيمة" العطوف. إن المَلَكَة يعاد بناؤها وفق المسار الاجتماعيّ القائم على التّعاون، بمعنى آخر، من خلال التّجربة المعيشة والتّأرجح بين الصّعود والاستقرار أو التّقهقر الاجتماعيّ، أي الانتماء او اللاانتماء. إنّها حلقة مفرغة يدور بها اللبنانيّون، تتجّه نحو التدمير الذّاتي.

الخاتمة

يحمل المكان الشّكل الخارجيّ للحياة، وذلك وفق تحرّكات الشّخصيّات وأهدافها وعلاقاتها، ثؤثّر وتتأثّر به، يتفاعلان. تتّخذ هذه الأماكن منحى إنسانيًا، يظهر من خلال العوالم النفسيّة الدّاخليّة للذّات. أماكن توقظ الذّاكرة إلى بقاع بقيت راسخة متجذّرة في الذّهن، تشّد إليها الحنين إلى مطارح الطّفولة، والأهل، والعائلة، والفرح، والألم، والشّوق لتلك الأماكن، ولتلك الأيّام، وكأنّ الشّخصيّة تهرب من واقعها المؤلم بذاكرتها إلى الماضي، فهذا "نظام" عاد إلى بستان "توما أبو شاهين" في حَورا، في الذّاكرة، إلى مرحلة الطّفولة، ليتخلّص من عبء المجتمع وتداعيات الحرب، إلاّ أنّه عاد جسدًا مكفّنًا، حيث اتّحدّ بالبستان وفاء لعهد فطرته الأولى.

لقد أرضت المدينة جسد شخصيّة "نظام"، وأشبع الرّيف متطلّبات الرّوح هدوءًا، وحنينًا، إذ شكّل الريف إلى جانب كونه بقاعًا جميلة المنظر، انعكاسات تموّجات النّفس، وبالتّالي إمكانيّة التّعبير عمّا يجول في الذّات الإنسانيّة.

مّما تقدّم، ومن خلال عرض علاقة التّأثّر والتّأثير، الانتماء واللاانتماء، بين المكان والشّخصيّة، تغلّف العاصمة البيروتيّة الشّقّة في المنارة بما آل إليه وضع البلد. لم تتصدّع فيها علاقات بشر أتوا من نواحٍ وأصول مختلفة، فالمصادفة جمعت "نظام" بـ"يسرى مكتبي" والّتي بدورها عرّفته على اليسار الشّيوعيّ، "خليّة فرج الله الحلو". فالبيت هنا يرمز إلى وطن ومجتمع، مكان يلجأ إليه الشّخصيّات من الرّفاق هربًا من رقابة الدّولة، إلاّ أنّ البيت لم يعد يشكّل المكان الآمن لـ"نظام" ورفاقه، أو لعشيقته "أولغا" مالكة الشّقة، يقتحمه المسلّحون. يصبح المكان غريبًا يحتلّه الآخرون، ويمنعون على أصحابه التّجوّل بحريّة فيه، يضايقون سكّانه، يغتصبون "أولغا".

تحوّل هذا المكان إثر اندلاع الحرب إلى مكان استغلال، واصطدام، وسلب كرامات النّاس، وإلى مكان استنزفت فيه حقوق البشر، وأعراضهم، وآمالهم، وازداد التّضيق عليهم، تمّ تهجيرهم، وتشريدهم. سرق المسلّحون محتويات الشّقة. تضعضع الرّفاق الّذين احتضنهم المكان، وذهب كلّ فرد باتّجاه وأمصار. أمّا "نظام"، وبعد التّحوّلات الطّارئة على السّاحة اللبنانيّة، فلم تعد البيوت الّتي سكنها مكانًا آمنًا يلجأ إليه من شرّ الخارج والخطر الّذي يحدق به.

كانت بيروت، من ناحية تمثّل يقظة التّضامن الوطنيّ خارج النّفوذ الطّائفيّة، ومن ناحية ثانية ارتهنت بعد الحرب الأهليّة إلى الأعمال العدائيّة المتمادية مكانيًا، التّبعيّة والإذعان للتّدخّلات الخارجيّة وللانقياد الطّائفي، الّتي أدّت، بدورها، إلى الكثير من النّزاعات الجماعيّة الّتي لطّخت تاريخ لبنان بالدّم. وقع أبناؤها ضحيّة العنف، والنّزاعات الفئويّة. أصبحت بيروت مكانًا يتيح للمتلقّي أن يفهم تزعزع الاستقرار النّاتج من تفاعل الانقسامات الدّاخليّة، عبر نزاعات الجماعة والجماعيّ.

أغلقت حَورا القرية المارونيّة أبوابها بوجه "نظام". هو الهجين الآتي من بلدة الميناء الأكثريّة السّنيّة، ورفضته. هُجِّر من شقّته السّكنية في المنارة، طرده التّوأمان من شقّة الأهل في الميناء بحجّة الخروج عن الدّين، استئثارًا بالميراث. النتيجة أنّه طُرد من جميع البيوت. هام في شوارع العاصمة، إلى أن قتله مناضلو الأحياء الوطنيّة لدى اكتشافهم في جيبه هويّة الجبهة الوطنيّة، أعداء المسلمين، فقتلوه على حمله هويّة مزيّفة لاسم "جوزيف صافي"، ولم يعثروا على قلادة آية الكرسي المربوطة إلى عنقه، جانب العين الزّرقاء.

يتبيّن لنا في خاتمة البحث أنّ **المقاربة السّيميائيّة** أداة منهجيّة في دراسة النّصّ، من خلال الأدوات الموظّفه على الخطاب الرّوائيّ، ما مكّن من فهم الأبعاد الدّلالية، وصياغة البحث كوحدة تكامليّة لموضوع الدراسة.

أخيرًا، حضر الرّيف والمدينة في الرّواية، إذ استهّلت الرّاوية بالرّيف، وكانت الانطلاقة منه، وبه كانت العودة. صحيح أنّ الروائي عرّج على المدينة، لإتمام موضوع الصّراع الوجوديّ الانتمائيّ. لكن الشّكل الحلزوني تكرّر في الرّواية، من الرّيف وإليه. ما يؤكّد أنّ المكان الرّوائيّ، أو الحيّز المكاني، لا ينفصل عن دلالته الحضاريّة الاجتماعيّة النفسيّة؛ إذ يحمل دلالات ملازمة له ولتشكّله، ما يساعد الكشف عن رؤية الرّوائيّ إلى عالمه، إذ الهندسة الرّوائيّة تسهم في تشفير الدّلالات، والكشف عن الأبعاد الوجوديّة كالانتماء واللاانتماء.

المصادروالمراجع

إبراهيم، ع. (1990). *المتخيّل السّرديّ: مقاربات نقديّة في التّناص والرّؤى والدّلالة*. (ط1). الدار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ.

أيّوب، ن. (2011). *نصّ القارئ المختلف وسيميائيّة الخطاب النّقديّ*. (ط)1. بيروت: مكتبة لبنان.

باشلار، غ. (1984). *جماليّات المكان*. (ط2). بيروت: المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع.
بحراوي، ح. (1990). *بنية الشّكل الرّوائيّ (الفضاء- الزّمن- الشّخصيّة)*. (ط1). بيروت، الدار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ.
بزاز، ع. (2007). *علم اجتماع بيار بورديو. أطروحة دكتوراه*، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، علم الاجتماع والدّيمغرافيا، جامعة منتوري، قسنطينة.
بكري، أ. (2022). صورة الحرب الأهليّة في لبنان رواية (شريد المنازل) لجبّور الدويهيّ نموذجًا. *مجلّة اللغة العربيّة وآدابها*، 1(3)، 49-72.
بلعابد ع. (2018). *عتبات: جيرار جنيت من النّصّ إلى المناص*. (ط1). الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف.
بلقاسم، ب. (2018). *"الهويّة ومكانة الأقليّات عند يورغن هابرماس. أطروحة دكتوراه*، فلسفة، كليّة العلوم الاجتماعيّة، قسم الفلسفة، جامعة السّانيا- وهران.
ابن ستيتي، س. (2013). *فنيّة التّشكيل الفضائي وسيرورة الحكاية في رواية الأمير، لـ"واسيني الأعرج" – دراسة سيميائيّة". أطروحة دكتوراه*، أدب حديث، كليّة الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربيّ. جامعة سطيف2.
ابن منظور، م. (د.ت). *لسان العرب*. (ط2). لبنان: دار إحياء التراث العربيّ، مؤسّسة التّاريخ العربيّ.
توام، ع. (2016). *دلالات الفضاء الرّوائيّ في ظلّ معالم السّيميائيّة: رواية الآن... هنا أو شرق المتوسّط مرّة أخرى لعبد الرّحمن منيف أنموذجًا. أطروحة دكتوراه*، علوم في اللغة والأدب العربيّ، الجزائر، جامعة أحمد بن بلة- وهران 1، كليّة الآداب والفنون، قسم اللغة العربيّة وآدابها.
جنداري، إ. (2001). *الفضاء الرّوائيّ عن جبرا إبراهيم جبرا*. (ط1). بغداد: دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة.
الحصّ، س. (2003). *نحن... والطّائفيّة*. (ط1). بيروت: شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر.
حمداوي، ج. (2015). *سيميوطيقا العنوان*. (ط1). الدار البيضاء.
دورليان، ج. (2018). *البحث عن المعنى: قراءات في الرّواية اللبنانيّة*. لبنان: منشورات جامعة البلمند.
الدّويهي، ج. (2012). *شريد المنازل*. (ط2). بيروت: دار السّاقي.
رضائي، أ.، ودهّان، ز. (2018). عتبات الفضاء النّصيّ في رواية شريد المنازل. *مجلّة اللغة العربيّة وآدابها*، 14(4)، 599- 618.
سعادة، ج. (2002). *الصّراع بين الرّيف والمدينة في شعر إيليّا أبي ماضي*. بيروت: دار الحداثة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
سويدان، س. (2006). *المتاهة والتّمويه في الرّوايّة*. (ط1). بيروت: دار الآداب.
شلاش، غ. (2011). المكان والمصطلحات المقاربة له: دراسة مفهوماتيّة. *مجلّة أبحاث كليّة التّربية الأساسيّة*، 11(2)، 241- 262.
عزّام، م. (2005). *شعريّة الخطاب السّرديّ*. دمشق: منشورات اتّحادّ الكتّاب العرب.
قاسم، س. (1984). *بناء الرّواية*. (ط1). القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، سلسلة دراسات أدبيّة.
لحمداني، ح. (1990). *النّقد الرّوائي والإيديولوجيا: من سوسيولوجيا الرّواية إلى النّصّ الرّوائيّ*. (ط1). بيروت، الدار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ.
لوتمان، ي. (1988). *جماليّات المكان*. (ط2). الدار البيضاء: عيون المقالات.
مرتاض، ع. (2003). *الأدب الجزائريّ القديم (دراسة في الجذور)*. الجزائر: دار هومة.
مرتاض، ع. (1998). في نظريّة الرّواية: بحث في تقنيّات السّرد. *الكويت، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة*، 240.
النّابلسيّ، ش. (1994). *جماليّات المكان في الرّواية العربيّة*. (ط1). بيروت: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر.
نجم، خ. (1991). *في النّقد الأدبيّ والتّحليل النّفسيّ*. (ط1). بيروت: دار الجيل، مكتبة السّائح.
واكيم، ن. (2000). *الأيادي السّود*. (ط30). بيروت: شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر.

References

Freud, S. (2001A). *Au-delà du principe de plaisir in Essais de la psychanalyse*. Paris: Payot.
Freud, S. (2001B). *Cinq leçons sur la psychanalyse*. Paris : Payot.
Freud, S. (1994). *Introduction à la psychanalyse*. Paris: Payot.
Genette, G. (1966). *Figures I*. Paris: Edition du Seuil.
Genette G. (1987). *Seuils*. Paris: Edition du Seuil.
Hoek, L. (1981). *La marque du titre dispositifs : sémiotiques d´une pratique textuelle*. Paris : Mouton.
Jung, CG. (1973). *Métamorphose de l'âme et ses symboles*. Paris: Georg.
Mitterrand, H. (1980). *Le discours du roman*. Paris : PUF.

Ibrahim, A. (1990). *The Narrative Imaginary: Critical Approaches to Intertextuality, Visions, and Meaning*. (1st ed.). Casablanca: Arab Cultural Center.
Ayoub, N. (2011). *The text of the different reader and the semiotics of critical discourse*. (1st ed.). Beirut: Lebanon Library.
Bachelard, G. (1984). *Aesthetics of Place. Translated by Ghaleb Hilsa*. (2nd ed.). Beirut: University Institution for Studies,

Publishing and Distribution.

Bahrawi, H. (1990). *The structure of the novelistic form (space - time - character*).(1st ed.). Beirut, Casablanca: Arab Cultural Center.

Bazzaz, A. (2007). *The Sociology of Pierre Bourdieu. Doctoral thesis*, Faculty of Humanities and Social Sciences, Sociology and Demography, Mentouri University, Constantine.

Bakri, A. (2022). The image of the civil war in Lebanon - novel (The Homeless) by Jabbour Al-Duwaihi, an example. *Journal of Arabic Language and Literature*, 1(3), 49-72.

Belabed A. (2008). *Thresholds: Gerard Genette from text to place*. (1st ed.). Arab House of Science Publishers, Al-Tifafir Publications,.

Belkacem, B. (2018). *Identity and the Status of Minorities according to Jürgen Habermas. Doctoral thesis*, Philosophy, Faculty of Social Sciences, Department of Philosophy, University of El-Sania, Oran.

Ibn Siti, S. (2013). *The art of space formation and the process of the story in the novel The Prince, by "Wassini Al-Araj": a semiotic study. Doctoral thesis*, Modern Literature. College of Arts and Languages, Department of Arabic Language and Literature, Setif University 2.

Ibn Manzur, M. (n.d). *Arabes Tong*. (2nd ed.) Lebanon: Arab Heritage Revival House, Arab History Foundation.

Tawam, A. (2016). *The connotations of the fictional space in light of the features of semiotics: the novel Now... Here or the Eastern Mediterranean Again by Abdel Rahman Munif as an example. Doctoral thesis*, Sciences in Arabic Language and Literature, Algeria, University, Ahmed Ben Bella - Oran 1, Faculty of Arts and Arts, Department of Arabic Language and Literature.

Jandari, I. (2001). *The Narrative Space of Jabra Ibrahim Jabra*. (1st ed.). Baghdad: House of Public Cultural Affairs.

Al-Hoss, S. (2003). *We...and sectarianism*. (1st ed.). Beirut: Publications Distribution and Publishing Company.

Hamdawi, J. (2015). *The Semiotics of Address*. (1st ed.). Casablanca.

Dorléans, G. (2018). *Searching for Meaning: Readings in the Lebanese Novel*. Lebanon: Balamand University Publications.

Al-Duwayhi, J. (2012). *Homelessness*. (2nd ed.). Beirut: Dar Al-Saqi.

Rezaei, A., & Dahan, Z. (2018). Thresholds of Textual Space in the Novel "The Displaced One". *Journal of Arabic Language and Literature*, 14(4), 599-618.

Saadeh, G. (2002). *The conflict between the countryside and the city in the poetry of Elia Abi Madi*. Beirut: Al-Hadatha for printing, publishing and distribution.

Swaidan, S. (2006). *The maze and camouflage in the novel*. (1st ed.). Beirut: House of Arts.

Shalash, Gh. (2011). Place and its related terminology: A conceptual study. *College of Basic Education Research Journal*, 11(2), 241-262.

Azzam, M. (2005). *The poetics of narrative discourse*. Damascus: Publications of the Arab Writers Union.

Qasim, S. (1984). *Building the Novel*. (1st ed.). Cairo: Egyptian General Book Authority, Literary Studies Series.

Lahmdani, H. (1990). *Novel criticism and ideology: from the sociology of the novel to the fictional text.* (1st ed.). Casablanca, Beirut: Arab Cultural Center.

Lotman, U. (1988). *Aesthetics of Place*. (2nd ed.). White House.

Mortad, A. (2003). *Ancient Algerian Literature: A Study in the Roots*. Algeria: Dar Houma.

Mortad, A. (1998). On the Theory of the Novel: Research into Narrative Techniques. *Kuwait, National Council for Culture, Arts and Literature, World of Knowledge Series*, 240.

Al-Nabulsi, S. (1994). The aesthetics of place in the Arabic novel. (1st ed.). Beirut: Arab Foundation for Studies and Publishing.

Negm, Ch. (1991). *On literary criticism and psychoanalysis*. (1st ed.). Beirut: Dar Al-Jeel, Al-Sayeh Library.

Wakim, N. (2000). *Black Hands*. (30th ed.). Beirut: Distribution and Publishing Company.